أبو عبيدة بن الجرّاح الفِهري

(رضي اللّه عنه)

فاتح أرض الشام

تـأليف

اللواء الركن محمود شيت خطاب

جمع وترتيب : المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

منشور في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق – المجلد 39 –
الجزء الأول – صفحة 113 – 127 + الجزء الثاني صفحة 184 - 199

1383هـ - 1964م

قادة الفتح الاسلامي :

أبو عبيدة بن الجراح الفِهري

فاتح أرض الشام (1)

« هذا أمين هذه الأمة »

محمد رسول الله

— ١ —

مع النبي :

أسلم أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح القرشي الفِهري (2) قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم (3) ، فكان أحد العشرة السابقين إلى الإسلام (4) .

---

(١) أرض الشام : حدودها من الغرب بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ومن الشرق البادية من أيلة إلى الفرات ثم من الفرات إلى حد الروم ، ومن الشمال بلاد الروم (الجمهورية التركية حالياً) ، ومن الجنوب حد مصر وتيه اسرائيل ، وآخر حدودها مما يلي مصر رَفح . راجع التفاصيل في المسالك والممالك ـ للاصطخري ص (٤٣) ، ومعجم البلدان (٥/٢١٩) . وهي سورية ولبنان وفلسطين والأردن في الوقت الحاضر .

(٢) هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبَّة بن الحارث بن فِهر . وأمه أميمة بنت غنم . راجع طبقات ابن سعد (٣/٤٠٩) ، والإصابة (٤/١١) ، وأسد الغابة (٣/٨٤) ، والاستيعاب (٣/٧٩٢) . وقد غلبت عليه كنيته . يلتقي نسبه بنسب رسول الله صلى الله عليه وسلم بـ (فهر) . راجع جوامع السيرة لابن حزم ص (٣) .

(٣) طبقات ابن سعد (٣/٤٠٩) ، و (٧/٣٨٤) .

(٤) الإصابة (٤/١١) ، وانظر تسلسل الذين أسلموا في سيرة ابن هشام (١/٢٦٤ ـ ٢٦٩) ، وفي جوامع السيرة لابن حزم ص (٤٥ ـ ٤٦) .

وهاجر أبو عبيدة إلى الحبشة الهجرة الثانية[١] تخلصاً من التعذيب والبلاء[٢]؛ ولكنه عاد إلى مكة بعد أن اتصل بمن كان في أرض الحبشة من المسلمين : ان قريشاً قد أسلمت ؛ وكان هذا الخبر كذباً[٣] .

ولما أذن رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة ، هاجر أبو عبيدة مع من هاجر من المسلمين إليها ، فآخى النبي ﷺ بينه وبين أحد أصحابه[٤] ؛ وهناك بدأ صفحة جديدة من كفاحه لاعلاء كلمة الله .

فقد شهد (بدراً) وقتل أباه الذي كان مشركاً في هذه المعركة[٥] ، إذ جعل والده يتصدى له وابو عبيدة يحيد عنه ، فلما أكثر قصده وقتله[٦] ، فنزل فيه قول الله تعالى : (لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر ، يوادون من حاد[٧] الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ، ويدخلهم جنات تجري من تحتها

---

(١) طبقات ابن سعد (٤١٠/٣) ، وسيرة ابن هشام (٣٥٢/١) ، وجوامع السيرة ص (٦٣) ، والإصابة (١١/٤) .

(٢) سيرة ابن هشام (٣٤٣/١) ، وجوامع السيرة ص (٥٥) .

(٣) سيرة ابن هشام (٣٩١/١) ، وجوامع السيرة ص (٦٦) .

(٤) في سيرة ابن هشام (١٢٤/٢) أن النبي صلى الله عليه وسلم آخى بينه وبين سعد ابن معاذ وكذلك في جوامع السيرة ص (٩٦) . أما في طبقات ابن سعد (٤١٠/٣) ففيه : أنه آخى بينه وبين سالم مولى أبي حذيفة ، وفي رواية بينه وبين محمد بن مسلمة .

(٥) الإصابة (١١/٤) والسيرة الحلبية (١٧٨/٢) .

(٦) الإصابة (١١/٤) .

(٧) حاد الله : حارب الله .

الأنهار خالدين فيها ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، أولئك حزب الله ، ألا إنّ حزب الله هم المفلحون)[١] .

وشهد (أحداً) وثبت مع رسول الله ﷺ حين انهزم الناس وولوا . قال أبو بكر الصديق : « لما كانت يوم أحد ورمي رسول الله ﷺ في وجهه حتى دخلت في أجنتيه حلقتان من المغفر[٢] ، فأقبلت أسعى إلى رسول الله ﷺ ، وإنسان قد أقبل من قِبَل المشرق يطير طيراناً ، فقلت : اللهم اجعله طاعة ، حتى توافينا إلى رسول الله ﷺ ، فإذا أبو عبيدة بن الجراح قد بَدَرَني ، فقال : أسألك بالله يا أبا بكر ألا تركتني فأنزعه من وجنة رسول الله ﷺ . قال أبو بكر : فتركته ، فأخذ أبو عبيدة بثنية إحدى حلقتي المغفر فنزعها وسقط على ظهره وسقطت ثنية أبي عبيدة ، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى ، فسقطت ؛ فكان أبو عبيدة في الناس أثرم[٣] » .

وبعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة في أربعين رجلاً من المسلمين ، فأغار على المشركين في (ذي القَصّة)[٤] فأعجزوهم هرباً في الجبال وأسروا رجلاً واحداً فأسلم[٥] .

---

(١) انظر تفسير الكشاف للزمخشري (١٧٢/٣) وتفسير ابن كثير (٢٧٣/٨) وفيه : انزلت هذه الآية في أبي عبيدة بن الجراح ، حين قتل أباه يوم بدر . والآية الكريمة من سورة المجادلة (٥٨ : ٢٢) .

(٢) المغفر : زرد يلبس فوق الرأس عند الحرب .

(٣) طبقات ابن سعد (٤١٠/٣) . والثرم بالتحريك : سقوط الثنية وهي واحدة الأسنان الأربع . وانظر جوامع السيرة ص (١٦١) وسيرة ابن هشام (٢٨/٣) .

(٤) ذو القصة : موضع بين زُبالة والشُّقُوق دون الشقوق بميلين فيه قُلُب للأعراب يدخلها ماء السماء عذب زلال ، وإلى هذا الموضع كانت غزاة أبي عبيدة بن الجراح أرسله اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . راجع التفاصيل في معجم البلدان (١١٤/٧) .

(٥) طبقات ابن سعد (٨٦/٢) و (٤١١/٣) وجوامع السيرة ص (١٨) .

وبعثه رسول الله ﷺ في المهاجرين الأولين، فيهم أبو بكر وعمر مدداً لعمرو ابن العاص في غزوة ذات السلاسل، وقال له: «لا تختلفا!»، فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم على عمرو قال له عمرو: «إنما جئت مدداً لي». قال أبو عبيدة: «لا، ولكني على ما أنا عليه، وأنت على ما أنت عليه». فقال عمرو: «بل أنت مدد لي». فقال أبو عبيدة: «يا عمرو! إن رسول الله ﷺ قال لي: لا تختلفا، وإنك إن عصيتني أطعتك»[1].

وبعثه في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار فيهم عمر بن الخطاب إلى حيّ ابن جهينة بـ (القَبَليَّة)[2] مما يلي ساحل البحر، فأصابهم في الطريق جوع شديد حتى أكلوا الخبط[3]، فابتاع لهم قيس بن سعد جُزُراً ونحرها لهم، وألقى لهم البحر حوتاً عظيماً فأكلوا منه، ثم انصرفوا دون أن يلقوا كيداً[4].

وشهد فتح مكة، وكان على مقدمة موكب رسول الله ﷺ المؤلف من المهاجرين[5]، كما شهد كافة المشاهد مع رسول الله ﷺ[6].

لقد كان أبو عبيدة موضع ثقة رسول الله ﷺ وحبّه، فقد سأل أهل اليمن رسول الله ﷺ أن يبعث معهم رجلاً يعلمهم السنة والإسلام، فأخذ بيد أبي عبيدة بن الجراح، وقال: «هذا أمين هذه الأمة»[7].

(١) سيرة ابن هشام (٣/٢٩٩) وطبقات ابن سعد (٢/١٣١) والإصابة (٤/١٢).
(٢) القبلية: سَراة فيما بين المدينة وينبع، ما سال منها إلا ينبع سمي بالغور، وما سال منها الى أودية المدينة سمي بالقبليه. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/٢٩)، وهو مما يلي ساحل البحر بينها وبين المدينة خمس ليال. انظر طبقات ابن سعد (٢/١٣٢).
(٣) الخبط: ورق الشجر.
(٤) طبقات ابن سعد (٢/١٣٢) وسيرة ابن هشام (٣/٣٠٩) وفتح الباري بشرح البخاري (٨ ٦٣).
(٥) سيرة ابن هشام (٤/٢٦) وجوامع السيرة ص (٢٣١).
(٦) طبقات ابن سعد (٣/٤١٠).
(٧) الإصابة (٤/١١) وشرح النووي على مسلم (٥/١٦٢).

وقال وفد (نجران)[١] للنبي ﷺ: «ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رضاً». فقال لهم رسول الله ﷺ: «ائتوني العشية أبعث معكم القوي الأمين»، فكان عمر بن الخطاب يقول: (ما أحببت الأمارة قط حبي إياها يومئذ رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجِّراً، فلما صلى بنا رسول الله ﷺ الظهر سلّم ثم نظر يمينه ويساره، فجعلت أتطاول له ليراني، فلم يزل يلتمس ببصره حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه، فقال: أخرج معهم فاقض بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه). قال عمر: (فذهب بها أبو عبيدة[٢]!)؛ وفي رواية أن النبي ﷺ قال لأهل نجران: (لأبعثن حق أمين) فأشرف أصحابه فبعث أبا عبيدة[٣]. وفي رواية أنه قال لهم: (سأبعث معكم رجلاً أميناً حق أمين) فتشرّف له الناس، فبعث أبا عبيدة[٤].

وكان الرسول ﷺ يقول عن أبي عبيدة: (إنّ لكل أمة أميناً، وإن أميننا أيتها الأمة أبو عبيده بن الجراح)[٥]. وقال عنه: (لكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح[٦]).

لقد كان أبو عبيدة من أنجب تلامذة مدرسة الرسول القائد.

---

(١) نجران: من مخاليف اليمن. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٥٨).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/٢١٥–٢١٦).
(٣) فتح الباري بشرح البخاري (٧/٧٤).
(٤) سنن الإمام ابن ماجة (١/٣٢) وفتح الباري بشرح البخاري (٨/٧٤) وشرح النووي على مسلم (٥/١٦٢).
(٥) فتح الباري بشرح البخاري (٧/٧٣) وشرح النووي على مسلم (٥/١٦٢).
(٦) فتح البارى بشرح البخاري (٨/٧٤).

جهاده :

١ — إلى الشام

استعمل أبو بكر الصديق أبا عبيدة على جيش من جيوش المسلمين وأمره (بحمص)[١]، وكان نص أمر أبي بكر الذي أصدره لقادة الشام : (إذا اجتمعتم على قتال فأميركم أبو عبيدة)[٢]، فسلك أبو عبيدة طريق (المُعْرِقة)[٣] حتى نزل (الجابية)[٤]، وكان عدد جيشه سبعة آلاف وخمسمائة رجل[٥].

وما كادت جيوش المسلمين تصل أرض الشام، حتى بعث (هرقل) قادته وجيوشه باتجاه قادة وجيوش المسلمين[٦]، ليشغل جيوش المسلمين بعضهم عن بعض، وليحول دون تعاون قادة المسلمين فيما بينهم، ولتضعف كل فرقة من المسلمين عمن بإزائها من الروم ؛ ولكن قادة المسلمين فوّتوا على الروم هذه الفرصة باجتماعهم في (اليرموك)[٧]، استعداداً لمواجهة الروم جيشاً واحداً بقيادة قائد واحد.

---

(١) ابن الأثير (٢/١٥٥) .
(٢) البلاذري ص (١١٦) وفتوح الشام للواقدي (١/٨) .
(٣) المعرقة : طريق تأخذ على ساحل البحر ، وهي الطريق التي كانت قريش تسلكها إذا أرادت الشام . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/٩٥) .
(٤) الجابية : قرية من أعمال دمشق . راجع معجم البلدان (٣/٣٣) .
(٥) البلاذري (١١٦) .
(٦) الطبري (٢/٥٩٠) وابن الأثير (٢/١٥٥) .
(٧) اليرموك : واد بناحية الشام في طرف الغور يصب في نهر الأردن . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/٥٠٤) .




٢ — في اليرموك

استمد أبو عبيدة بعد اجتماع المسلمين في اليرموك ابا بكر ، فقال أبو بكر : (خالد لها !) فبعث اليه وهو بالعراق ، وعزم عليه واستحثه في السير [١] .

وطلع خالد على المسلمين ، ففرحوا به فرحاً شديداً ؛ فكان خالد قائداً عاماً في معركة اليرموك الحاسمة [٢] ، وكان أبو عبيدة على القلب [٣] ، فهاجم خالد الروم (بالقلب) حتى كان بين مشاتهم وفرسانهم وكان هجوم القلب صاعقاً ، فلما وجدت خيل الروم منفذاً لها للهرب ، تركت ساحة المعركة هاربة [٤] ؛ وبذلك قضى المسلمون على مشاة الروم ، فانتهت معركة اليرموك الحاسمة بانتصار المسلمين .

٣ — بعد اليرموك

تولى أبو عبيدة بعد اليرموك منصب القيادة العامة في أرض الشام [٥] ، فاستخلف على اليرموك بشير بن كعب الحميري [٦] ، وسار حتى نزل (**بالصُّفَّر**) [٧] ، وهناك أتاه الخبر بأن المنهزمين من الروم اجتمعوا (**بفِحْل**) [٨] ، وأتاه الخبر بأن المدد قد أتى أهل (دمشق) من (حمص) ، فكتب إلى عمر في ذلك ؛ فأجابه :

(١) الطبري (٢/٥٩١) .
(٢) فتوح الشام للواقدي (١/١٤) والبلاذري ص (١١٧) والأغاني (١٤/٢٦) .
(٣) الطبري (٢/٥٩٣) وابن الأثير (٢/١٥٨) .
(٤) الطبري (٢/٥٩٦) وابن الأثير (٢/١٥٨) .
(٥) ابن الأثير (٢/١٥٨) وطبقات ابن سعد (٣/٣٩٧) واليعقوبي (٢/١١٧) .
(٦) بشير بن كعب الحميري : أحد الأمراء في اليرموك ، خلفه أبو عبيدة على اليرموك في خيل . وهو صحابي جليل . راجع الاصابة (١/١٦٤) و (١/١٨٠) .
(٧) الصفّر : هو مرج الصفر ، موضع بين دمشق والجولان . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٥/٣٦٧) .
(٨) فحل : اسم موضع بالشام في ناحية الأردن . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٦/٣٤٠) .




بأن يبدأ بدمشق لأنها حصن الشام وعاصمتها ، وأن يشغل أهل (فِحْل) بخيل تكون بازائهم ، وإذا فتح دمشق سار إلى (فحل)[١] .

٤ — في دمشق

سار أبو عبيدة بالناس من المرج وعلى مقدمته خالد بن الوليد وعلى المجنبتين عمرو بن العاص وأبو عبيدة نفسه ، وعلى الخيل عياض بن غنم وعلى الرجل شرحبيل ابن حسنة ، فقدموا على دمشق وحصروا أهلها وطرّقوها ، وكان أبو عبيدة على ناحية[٢] وخالد على ناحية الباب الشرقي[٣] ، فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون وصول الامدادات ، فلما أيقن أهل دمشق أن الامدادات لا تصل اليهم فشلوا ووهنوا وازداد المسلمون طمعاً فيهم .

وانتهز خالد فرصة انشغال أهل المدينة في احتفالهم بمولد طفل للبطريق ، فاعتلى هو وأصحابه السور وفتحوا الباب ، فلما رأى الروم ذلك قصدوا أبا عبيدة

(١) نص وصايا حركات عمر كما وردت في الطبري (٢/٦٢٥) ، أما بعد : فابدأوا بدمشق فانهدّوا لها فانها حصن الشام وبيت مملكتهم ، وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بأزائهم في نحورهم ، وأهل فلسطين ، وأهل حمص ، فان فتحها الله قبل دمشق ، فذاك الذي نحبّ ، وإن تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق ، فلينزل بدمشق من يمسك بها ، ودعوها . وانطلق أنت وسائر الأمراء حتى تغيروا على فحل ، فان فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد إلى حمص ودع شرحبيل وعمراً وأجلهما بالاردن وفلسطين ، وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من إمارته . وانظر أيضاً ابن الأثير (٢/١٦٤) .
(٢) الطبري (٢/٦٢٦) .
(٣) البلاذري (١٢٧) .




وبذلوا له الصلح ، فقبل منهم وفتحوا له الباب وقالوا له : ادخل وامنعنا من أهل ذلك الجانب ، فدخلها خالد عنوة ودخلها أبو عبيدة صلحاً (١) .

٥ — بعد دمشق

سار أبو عبيدة بعد فتح دمشق إلى (فِحْل) بعد أن استخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق ، فشهد انتصار المسلمين في هذه المعركة التي كان من نتائجها فتح الاردن على يد شرحبيل بن حسنة (٢) . وبينما كان أبو عبيدة يخوض معركة (فحل) ، كان يزيد بن أبي سفيان يخوض معارك فتح ساحل دمشق : صيدا وعرقة وبيروت (٣) .

٦ — إكمال فتح سورية

انصرف أبو عبيدة بخالد بن الوليد ومن معه إلى (حمص) ، وفي طريقه اليها اصطدم بقوات الروم في (مرج الروم) ، وأرسل خالد ليضرب من الخلف قوات الروم التي قصدت دمشق ، فاستطاع خالد كما استطاع أبو عبيدة الانتصار على الروم (٤) .

---

(١) الطبري (٢/٦٢٤–٦٢٧) وابن الأثير (٢/١٦٤–١٦٥) . أما البلاذري في ص (١٢٩) فيذكر : أن اسقف دمشق لما رأى أبا عبيدة قد قارب دخول المدينة ، بدر إلى خالد فصالحه وفتح له الباب الشرقي ، فدخل معه ، فقال بعض المسلمين : والله ما خالد بأمير ، فكيف يجوز صلحه ؟ فقال أبو عبيدة : « إنه يجير على المسلمين أدناهم » ، وأجاز صلحه وأمضاه ... انتهى .
وأكثر الروايات على ما ذكرناه في المتن ، لذلك رجحناه — خاصة وانه أقرب لطبيعة القائدين : طبيعة أخلاق خالد المحاربة وطبيعة أخلاق أبي عبيدة المسالمة ، لذلك نرجح دخول خالد دمشق من الباب الشرقي قسراً ودخول أبي عبيدة من باب الجابية سلماً .
(٢) الطبري (٢/٦٢٨–٦٣٠) وابن الأثير (٢/١٦٥–١٦٦) والبلاذري ص (١٢٢).
(٣) ابن الأثير (٢/١٦٥) والبلاذري ص (١٢٣) .
(٤) الطبري (٣/٩٦) وابن الأثير (٢/١٩٠) .





واستمر أبو عبيدة في سيره باتجاه هدفه (حمص) ، فسلك طريق (بَعْلَبَك)[١] فطلب أهلها الأمان ، فأمنهم وصالحهم ، وسار عنهم ، فنزل على (حمص) ومعه خالد ، ففتحها بعد حصار طويل على مثل صلح دمشق[٢] . ثم مضى إلى (حَماة)[٣] ، فتلقاه أهلها مذعنين ، فصالحهم على الجزية لرؤوسهم والخراج على أرضهم . ومضى نحو (شَيْزَر)[٤] فخرجوا اليه يسألون الصلح على ما صالح عليه أهل حماة ، فسار أبو عبيدة إلى (معرة حمص)[٥] وهي (معرة النعمان) ، فأذعنوا بالصلح على ما صالح عليه أهل حمص .

وسار أبو عبيدة إلى (اللاذقيه)[٦] وكان لها باب عظيم لا يمكن فتحها إلا بجماعة كبيرة من الناس ، فعسكر المسلمون على بعد منها ، ثم أمر فحفرت حفائر عظيمة تستر الحفرة منها الفارس راكبا ، ثم أظهر المسلمون أنهم عائدون

---

(١) بعلبك : مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٦/٢) والمسالك والممالك ص (٤٦) . « لجنة المجلة : عُرّفت بعلبك وغيرها من المدن والقرى على حسب ما ورد فيها في الكتب القديمة » .

(٢) الطبري(٩٧/٣) وابن الأثير (١٩٠/٢) والبلاذري ص (١٣٦) .

(٣) حماة : مدينة كبيرة عظيمة ، يحيط بها سور ، تقع على نهر العاصي . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣٣٥/٣) .

(٤) شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة ، بينها وبين حماة يوم واحد . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣٢٤/٥) .

(٥) معرة حمص : مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة . أطلق عليها اسم معرة النعمان على اسم الصحابي الجليل النعمان بن بشير الذي مات بها . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٩٦/٨) والمسالك والممالك ص (٤٦) .

(٦) اللاذقية : مدينة في ساحل بحر الشام تعد من أعمال حمص . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣١٢/٧) .

عنها ورحلوا، فلما أظلم الليل عادوا واستتروا في تلك الحفائر. وأصبح أهل اللاذقية وهم يرون أنّ المسلمين قد انصرفوا عنهم، فأخرجوا سرحهم وانتشروا بظاهر البلد، فلم يرعهم إلا والمسلمون يصيحون بهم ودخلوا معهم المدينة، ففتحوها عنوة (١).

وأرسل أبو عبيدة خالداً إلى (قِنَّسْرِين) (٢)، وفي (الحاضر) (٣) اصطدم خالد بقوات الروم، فاقتتلوا قتالاً لم يقتتلوا مثله من قبل، وكانت نتيجة المعركة انتصار المسلمين على الروم، فسار خالد حتى نزل على (قنسرين)، فتحصّن أهلها منه، ولكنهم صالحوه على مثل صلح حمص، فأبى إلا على خراب المدينة (٤).

ولما فرغ أبو عبيدة من (قنسرين) سار إلى (حَلَب) (٥) فبلغه أن أهل قنسرين نقضوا وغدروا، فوجه اليهم السمط الكندي (٦)، فأعاد فتحها.

ووصل أبو عبيدة (حاضر حلب) (٧)، فصالح أصنافاً من العرب على الجزية، ثم أسلموا بعد ذلك. وأتى حلب فتحصّن أهلها، ولكنهم لم يلبثوا أن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأولادهم ومدينتهم وكنائسهم وحصنهم، فأعطوا ذلك (٨).

---

(١) ابن الأثير (٢/١٩٠) والبلاذري ص (١٣٧)، وفي البلاذري ص (١٣٨): أن الذي فتح اللاذقية هو عبادة بن الصامت.

(٢) قنسرين: بلد في أرض الشام جنوبي حلب. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٧/١٦٨) والمسالك والممالك ص (٤٦).

(٣) الحاضر: خلاف البادي، وهو بقرب حلب قنسرين وهو حاضر قنسرين.

(٤) الطبري (٣/٩٨) وابن الأثير (٢/١٩١) والبلاذري ص (١٥٠).

(٥) حلب: مدينة عظيمة واسعة، وهي قصبة قنسرين، مسوّرة بحجر أبيض. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٣١١) والمسالك والممالك ص (٤٦).

(٦) هو السمط بن عمرو الكندي. وسترد ترجمته مع قادة الفتح الإسلامي.

(٧) حاضر حلب: الحاضر خلاف البادي، وهو بقرب حلب. راجع التفاصيل معجم البلدان (٣/١٩٩).

(٨) ابن الأثير (٢/١٩١) والبلاذري (١٥١).





وسار أبو عبيدة من حلب إلى (إنطاكية)[1] وقد تحصن بها خلق كثير من قنسرين وغيرها، فحاصرها من جميع نواحيها، فصالحوه على الجلاء أو الجزية، فجلا بعضهم وأقام بعضهم، فأمنهم[2].

وبلغ أبا عبيدة أن جمعاً من الروم بين (معرة مَصْرِيْن)[3] وحلب، فقصدهم وقاتلهم وفتح (معرة مصرين) على مثل صلح حلب. وجالت خيوله فبلغت (بوقا)[4] وفتحت قرى (الجُومة)[5] و (سَرْمِين)[6] و (مَرْتَحْوان)[7] و (تِيزِين)[8] وغلبوا على جميع أرض قنسرين وانطاكية[9].

وسار أبو عبيدة يريد (قُورُس)[10] فصالحها على صلح إنطاكية وبث خيوله

---

(١) إنطاكية: مدينة تعتبر قصبة العواصم من الثغور الشامية. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣٥٣/١).

(٢) ابن الأثير (١٩٢/٢) والبلاذري ص (١٥٢).

(٣) معرة مصرين: بليدة وكورة بنواحي حلب ومن أعمالها، بينهما نحو خمسة فراسخ. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٩٥/٨).

(٤) بوقا: بليدة قريبة من حلب ومن أعمالها.

(٥) الجومة: من نواحي حلب. راجع معجم البلدان (١٧٦/٣).

(٦) سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب. راجع معجم معجم البلدان (٧٥/٥).

(٧) مرتحوان، من نواحي حلب. راجع معجم البلدان (١٤/٨).

(٨) تيزين: قرية كبيرة من نواحي حلب، كانت تعد من أعمال قنسرين. راجع معجم البلدان (٤٤١/٢).

(٩) ابن الأثير (١٩٢/٢) والبلاذري ص (١٥٤).

(١٠) قورس: مدينة أزلية بها آثار قديمة. وهي كورة من نواحي حلب. راجع التفاصيل في معجم البلدان (١٨١/٧).

فغلب على جميع أرض (قورس)، وفتح (تل عزاز)[١]، ثم فتح (منبج)[٢] و(دلوك)[٣] و(رعبان)[٤] صلحاً، واشترط على أهلها أن يخبروا المسلمين بخبر الروم، ووجه أبو عبيدة خالداً وهو (بمنبج) إلى (مرعش)[٥] ففتحها وأجلى أهلها وأخربها، كما أنه فتح حصن (الحدث)[٦]، وبذلك استولى أبو عبيدة على أرض الشام من هذه الناحية إلى الفرات، فولى على كل كورة فتحها عاملاً، وضم اليه جماعة من الإداريين يعاونونه في إدارة منطقته وجيشاً يدافع عنها؛ ثم عاد إلى فلسطين[٧].

وبينما كان أبو عبيدة يعمل جاهداً لإكمال فتح سورية، كان عمرو بن العاص يعمل جاهداً لفتح فلسطين، فجاءه أبو عبيدة، وحاصروا (ايلياء)[٨] وهي

---

(١) تل عزاز: بليدة فيها قلعة تقع شمالي حلب، بينهما يوم واحد. راجع معجم البلدان (٦/١٦٨).

(٢) منبج: بلدة قديمة كبيرة واسعة، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ. راجع معجم البلدان (٨/١٦٩).

(٣) دلوك: بليدة من نواحي حلب بالعواصم. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤/٦٨).

(٤) رعبان: مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات، معدودة من العواصم. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٦١).

(٥) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، لها سوران وخندق، وفي وسطها حصن عليه سور. راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٥).

(٦) الحدث: قلعة حصينة بين ملطية وسميساط ومرعش، من الثغور، يقال لها: الحمراء، وقلعتها على جبل يقال له: الأحيدب. راجع معجم البلدان (٣/٢٣١) وعن فتح مرعش والحدث تاريخ أبي الفداء (١/١٦٠).

(٧) ابن الأثير (٢/١٩٢) والبلاذري ص (١٥٥).

(٨) ايلياء: اسم مدينة بيت المقدس. ومعناها: بيت الله. راجع التفاصيل في معجم البلدان (١/٣٩٢).

بيت المقدس ، فطلب أهلها أن يصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح أهل الشام ، وأن يكون المتولي لعقد الصلح عمر بن الخطاب ، فكتب اليه بذلك ، فقدم عمر وفتح مدينة القدس[1] .

٧ – الدفاع عن حمص

عاد أبو عبيدة الى (حمص) بعد فتح القدس ، فقصده الروم ، وكان المهيج لهم أهل (الجزيرة)[2] ، فقد راسلوا ملك الروم وحثوه على إرسال الجيوش لاسترداد الشام ، وتطوعوا من أجل ذلك لمعاونته .

وسمع أبو عبيدة باجتماع الروم وحلفائهم ، فضمّ اليه مسالح المسلمين وعسكر في داخل مدينة حمص . وأقبل خالد من قنسرين اليهم ، فاستشاره أبو عبيدة في مهاجمة الروم أو التحصين إلى مجيء الامدادات ، فأشار خالد بالمناجزة وأشار غيره بالتحصين ، فأطاع أبو عبيدة الأكثرية ، وكتب بذلك إلى عمر .

وكان عمر قد أعدّ في كل مصر من أمصار المسلمين الكبيرة ومنها الكوفة قوة احتياطية سريعة من الفرسان ، فكان بالكوفة وحدها أربعة آلاف فرس ، وكان واجب هذه القوات الاحتياطية السريعة ، إسناد مواقع المسلمين التي يتهددها الخطر اسناداً فورياً حتى يتجهّز الناس ، فلما سمع عمر الخبر ، كتب إلى سعد بن أبي وقاص : « اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرّحهم من يومهم الذي يأتيك فيه كتابي إلى حمص ، فان أبا عبيدة قد أحيط به ، وتقدّم اليهم

(١) ابن الأثير (٢/١٩٣) والبلاذري ص (١٤٥) .

(٢) الجزيرة : هي التي بين دجلة والفرات مجاورة أرض الشام ، تشمل على ديار مضر وديار بكر . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٩٦) .



في الجد والحث » ، وكتب إليه أيضاً ، أن يسرّح سهيل بن عدي إلى (الرقة)(١) لأن أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص ، وأمره أن يُسرّح عبدالله بن عبد الله بن عتبان إلى (نصيبين)(٢) ، ثم ليقصد (حران)(٣) و (الرُها)(٤) ، وأن يُسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ ، وأن يُسرّح عياض بن غَنم ، فان كان قتال ، فأمرهم إلى عياض .

ومضى القعقاع من يومه على رأس أربعة آلاف فارس إلى حمص(٥) ، وخرج عياض وأمراء الجزيرة وأخذوا طريق الجزيرة ، وتوجّه كل أمير إلى المنطقة التي أُمّر عليها ، وخرج عمر فأتى (الجابيه) يريد حمص مغيثاً لأبي عبيدة .

وبلغ أهل الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص أن جنود المسلمين قد تحركوا من الكوفة دون أن يعرفوا الوجهة الحقيقية لها : أي هل تتجه صوب الجزيرة أم تتجه إلى حمص ، كذلك تفرقوا إلى بلدانهم لحمايتها والدفاع عنها من

---

(١) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات . انظر التفاصيل في معجم البلدان (٤/٢٧٢) والمسالك والممالك ص (٥٣) .

(٢) نصيبين : مدينة كبيرة عامرة في بلاد الجزيرة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٨/٢٩٢) والمسالك والممالك ص (٥٢) .

(٣) حران : مدينة عظيمة مشهورة في الجزيرة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٣/٢٤١) والمسالك والممالك ص (٥٤) .

(٤) الرها : مدينة في الجزيرة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٤/٣٤٠) والمسالك والممالك ص (٥٤) .

(٥) حركة أربعة آلاف فارس في يوم واحد إلى هدف بعيد ليس سهلاً . إنه يكاد يكون مستحيلاً في أيامنا الحاضرة ، فكيف أنجزه المسلمون قبل أربعة عشر قرناً ؟!

الخطر المباشر الذي داهمها ؛ وبقي الروم وحدهم حول حمص ، فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم بسهولة قبل أن يبلغ القعقاع حمص بثلاثة أيام ؛ فكتب عمر إلى أبي عبيدة كي يشرك أهل الكوفة في العطاء قائلاً : « جزى الله أهل الكوفة خيراً : يكفون حوزتهم ويمدّون أهل الأمصار »(١).

وبذلك استطاع أبو عبيـدة ترصين ما فتحه من أرض الشام ، وإكمال فتح أرض الشام : سورية ولبنان وفلسطين والأردن .

الزعيم الركن

محمود شيت خطاب

(يتبع)

---

(١) الطبري (٣/ ١٥٠) وابن الأثير (٢/ ٢٠٥) .

أبو عبيدة بن الجراح الفهري

فاتح أرض الشام

« هذا أمين هذه الأمة »

محمد رسول الله

- ٢ -

الإنسان :

١ - كان أبو عبيدة معروق الوجه ، خفيف اللحية ، طوالاً ، أجنأ ، أثرم[١] ، وما رؤي أهتم قط أحسن منه[٢] ، وكان يخضب رأسه ولحيته بالحناء والكتم[٣] .

وربما كان هناك من يشابهه في صفاته الجسمية وفي مزايا قيادته ، ولكن أبا عبيدة تفوّق على أقرانه في مزاياه الانسانية ، وحسبه أن يكون فريداً في خلقه حتى بين الصحابة بشهادة رسول الله ﷺ إذ قال : « ما أحد من أصحابي إلا لو شئت لأخذت عليه في خلقه ، ليس أبا عبيدة بن الجراح[٤] » . وكان يدعى بين الصحابة : القوي الأمين ، لقول رسول الله ﷺ لأهل نجران :

---

(١) الاصابة (٤/١٢) وطبقات ابن سعد (٧/٣٨٤) ، ومعروق الوجه : أي قليل لحم الوجه . أجنأ : ناتئ الوجنة . أثرم : انكسرت ثنيتاه .
(٢) أسد الغابة (٣/٨٥) والاستيعاب (٢/٧٩٣) ، وأهتم : انكسرت ثنيتاه .
(٣) الاصابة (٤/١٣) وأسد الغابة (٣/٨٦) ، والكتم : نبت يخلط بالوسمة يختضب به .
(٤) الاصابة (٤/١٢) والاستيعاب (٢/٧٩٣) .

« لارسلنّ معكم القوي الأمين » ولقوله : « لكل أمة أمين ، وأمين أمتي أبو عبيدة بن الجراح [١] » ، لذلك كان من أحب أصحاب النبي ﷺ إلى النبي ، فقد قيل لعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : أي أصحاب رسول الله ﷺ كان أحب إليه ؟ فقالت : « أبو بكر ثم عمر ثم أبو عبيدة بن الجراح [٢] » .

وقد وصفه عبد الله بن عمرو [٣] قائلاً : « أصْبَحُ الناسِ وجوهاً وأحسنهم خلقاً وأشدهم حياءً ثلاثة : أبو بكر وعثمان وأبو عبيدة [٤] » .

---

(١) الاستيعاب (٢/٧٩٣) .

(٢) الاصابة (٤/١٢) .

(٣) عبد الله بن عمرو بن العاص : أسلم قبل أبيه ، وكان فاضلاً حافظاً عالماً ، قرأ القرآن والكتب المتقدمة ، واستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتب حديثه فأذن له ، قال : « يارسول الله ! أكتب كل ما أسمع منك في الرضا والغضب ؟ » قال : « نعم ، فاني لا أقول إلا حقا » . وكان يسرد الصوم ولا ينام الليل ، فشكاه أبوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : « إن لعينك عليك حقاً ، وإن لأهلك عليك حقاً ، قم ونم وصم وافطر . صم ثلاثة أيام من كل شهر فذلك صيام الدهر » فقال : « إني أطيق أكثر من ذلك » ، فلم يزل يراجعه في الصيام ، حتى قال له : « لا صوم أفضل من صوم داود ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً » فوقف عبد الله عند ذلك وتمادى عليه .
واعتذر رضي الله عنه عن شهوده صفين ، وأقسم أنه لم يرم فيها برمح ولا سهم ، وأنه إنما شهدها لعزمة أبيه عليه في ذلك ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : « أطع أباك » .
كان أبيض الرأس واللحية ، طوالاً أحمر عظيم البطن ، وقد عمي في آخر أيامه ، وتوفي بالشام سنة خمس وستين وهو يومئذ ابن اثنتين وسبعين . وقد روى عن أبي بكر وعمر . راجع التفاصيل في طبقات ابن سعد (٤/٢٦١) والاصابة (٤/١١١) وأسد الغابة (٣/٢٣٣) والاستيعاب (٣/٩٥٦) .

(٤) الاصابة (٤/١٢) .

لقد كان أحد العشرة السابقين للاسلام[١]، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة[٢].
ولما توفي رسول الله ﷺ، أتى بعض الناس أبا عبيدة ليبايعوه بالخلافة، فقال: « أتأتوني وفيكم ثالث ثلاثة ؟ » يريد أبا بكر الصديق، اشارة للآية الكريمة: ﴿ إذ هما في الغار، إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا ﴾، وكان عمر ابن الخطاب ممن أتاه يومذاك، فقال: « ابسط يدك فلأبايعك، فانك أمين هذه الامة على لسان رسول الله ﷺ ». فقال أبو عبيدة لعمر: « ما رأيت لك فهة قبلها منذ أسلمت! أتبايعني وفيكم الصديق وثاني اثنين ؟ »[٣]. وبينما كان عمر وأبو عبيدة في هذا الحديث، علما بأن الأنصار قد اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة لاختيار خليفة للمسلمين، فأرسل عمر إلى أبي بكر في بيت عائشة أم المؤمنين، وقصدوا سقيفة بني ساعدة، فقال أبو بكر: « ما هذا !؟ »، فقال الأنصار: « منا أمير ومنكم أمير »، فقال أبو بكر: « منا الأمراء ومنكم الوزراء »، ثم قال: « قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر وأبا عبيدة أمين هذه الأمة »، فقال كل من عمر وأبي عبيدة: « لا ينبغي لأحد أن يكون فوقك يا أبا بكر »، فبايعاه[٤].

٣ — وفي خلافة أبي بكر، تولى أبو عبيدة أمر المال[٥]، وهو الذي فرض

---

(١) الاصابة (٤/١١).
(٢) أسد الغابة (٣/٨٥) والاستيعاب (٢/٧٩٣) والسيرة (٣/٣٦٦).
(٣) طبقات ابن سعد (٣/١٨١) والسيرة الحلبية (٣/٣٩٥)، والفهة: هي السقطة أو الجهلة.
(٤) ابن الأثير (٢/١٢٣) والسيرة الحلبية (٣/٣٩٥) واليعقوبي (٢/١٠٢) والاستيعاب (٢/٧٩٣).
(٥) الطبري (٢/٦١٧) وابن الأثير (٢/١٦١).

لأبي بكر قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم في سعة الرزق ولا بأفقرهم وكسوة الشتاء والصيف[١]، وذلك ليتفرغ أبو بكر لإدارة أمور المسلمين وينصرف عن التجارة حرفته السابقة .

وولاه أبو بكر القيادة العامة في أرض الشام، فاستعفاه أبو عبيدة من ذلك[٢]، ولكن أبا بكر أصرّ على رأيه؛ فلما تحرّج موقف المسلمين في أرض الشام واجتمعوا باليرموك، ولى أبو بكر خالداً منصب القيادة العامة في الشام بدلاً عن أبي عبيدة[٣] الذي بقي على جند حمص[٤]؛ ولكن عمر بن الخطاب أعاده إلى منصب القيادة العامة بعد وفاة أبي بكر[٥] وصيّر خالداً موضع أبي عبيدة[٦] أي أن خالداً أصبح قائداً مرؤوساً لأبي عبيدة في أرض الشام، فلم يخبر ابو عبيدة خالداً بعزله إكراماً له وإجلالاً[٧]، فلما علم خالد بعزله واستعمال أبي عبيدة مكانه، قال الناس: «بعث عليكم أمين هذه الأمة»، وقال أبو عبيدة للناس عن خالد: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: خالد سيف من سيوف الله، نعم فتى العشيرة»[٨] ... لقد كان كلاهما فوق المناصب،

(١) السيرة الحلبية (٣/٣٩٧) .
(٢) البلاذري ص (١١٦) .
(٣) فتوح الشام للواقدي (١/١٤) والبلاذري ص (١١٧) والأغاني (١٤/٣٦) .
(٤) ابن الأثير (٢/١٥٥) .
(٥) طبقات ابن سعد (٧/٣٩٧) .
(٦) اليعقوبي (٢/١١٧) .
(٧) ابن الأثير (٢/٢٠٧) ، وفي رواية أخرى أن خالداً علم بعزله قبل أن يعلم به أبو عبيدة ، راجع الطبري (٢/٥٩٥) وابن الأثير (٢/١٥٨) .
(٨) الاصابة (٢/٩٩) وأسد الغابة (٣/٨٥) والاستيعاب (٢/٧٩٤) .

وكلاهما يعتبر المنصب تكليفاً لا تشريفاً ، فلا عجب ألا يؤثر عزل أحدهما في نفسيتيهما ولا في علاقاتهما الشخصية .

وكما كان أبو عبيدة لا يكترث بالمناصب ، كان لا يكترث بمتاع الدنيا من مال وعقار ، فقد أرسل عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بأربعة آلاف درهم وأربعمائة دينار ، وقال للرسول : « انظر ما يصنع ! » فقسمها أبو عبيدة ، فلما أخبر الرسول عمر ، قال : « الحمد لله الذي جعل في الإسلام من يصنع هذا ! »[1] .

ولما قدم عمر الشام ، تلقاه أمراء الأجناد وعظماء أهل الأرض ، فقال عمر : « أين أخي ؟ » فقالوا : من ؟ ، قال « أبو عبيدة » ، قالوا : يأتيك الآن ، فجاء على ناقة مخطومة بحبل ، فسلم عليه ، فقال عمر للناس : « انصرفوا عنا ! » ، وسار مع أبي عبيدة حتى أتى منزله فنزل عليه ، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ، فقال عمر : « لو اتخذت متاعاً — أو قال — شيئاً » ، فقال أبو عبيدة : « يا أمير المؤمنين ! إن هذا سيبلغنا المقيل[2] » .

---

(١) طبقات ابن سعد (٤١٣/٣) .

(٢) الاصابة (١٢/٤) وأسد الغابة (٨٦/٣) والمقيل : النوم عند الظهيرة ، وفي رواية أن عمر قال : « اذهب بنا إلى منزلك يا أبا عبيدة » ، فقال له : « وما تصنع عندي يا أمير المؤمنين ؟ ما تريد الا أن تعصر عينيك علي ! » . ودخل عمر فلم ير في البيت شيئاً ، فقال : « فأين متاعك ؟ لا أرى إلا لبداً وصفحة وشناً — الشن القربة الخلق — وأنت أمير ! أعندك طعام ؟ فقام أبو عبيدة الى جونة — الجونة هي سلة مستديرة — فأخذ منها كسيرات ، فبكى عمر ، فقال له أبو عبيدة : « قلت لك انك ستعصر عينيك علي يا أمير المؤمنين !! يكفيك من الزاد ما بلغك المحل » فقال عمر : « غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة !! » .

٣ — وكان على جانب عظيم من الورع والتقوى والإخلاص لعقيدته ، فقد قتل أباه يوم (بدر) لأن العقائد فرّقت بينهما فَفَصلت بينهما السيوف ؛ وهو الذي قال لعمر حين أراد الرجوع من حيث أتى لما علم بانتشار وباء الطاعون في أرض الشام : « أتفرّ من قدر الله ؟ » فقال عمر : « لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم نفر من قدر الله تعالى إلى قدر الله تعالى » وذلك دل على جـلالة قدر أبي عبيدة عند عمر [١] . ولما حضرته الوفاة قال : « غفر الله لعمر بن الخطاب رجوعه من (سَرْغ) [٢] » ، ثم قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقـول : المطعون شهيد ، والمبطون شهيد ، والغريق شهيد ، والحَرِق شهيد ، والهدم شهيد ، والمرأة تموت بجُمْع شهيدة ، وذات الجنب شهيدة » [٣] ؛ لذلك حرص أبو عبيدة على أن يصاب بالطاعون لينال شرف الشهادة ؛ فقد كان معافى وأهله من الطاعون ، فقال : « اللهم نصيبك في آل عبيدة ، فخرجت بأبي عبيدة في خنصره بثرة فجعل ينظر اليها ، فقيل له : إنها ليست بشيء ، فقال : « إني لأرجو أن يبارك الله فيها ، فانه إذا بارك في القليل كان كثيراً [٤] » .

وأراد عمر بن الخطاب أن يستخرج أبا عبيدة من منطقة الوباء بعد اشتداده ، فكتب اليه : « سلام عليك . أما بعد . فقد عرضت لي إليك حاجة أريد أن

---

(١) الاصابة (٤/١١) .
(٢) سرغ : هو أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك من منازل حاج الشام ، وفيها لقي عمر بن الخطاب أمراء الأجناد ، بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة ، وهناك أيضاً لقي عمر من أخبره بطاعون الشام ، فرجع الى المدينة . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٥/٧٠) .
(٣) طبقات ابن سعد (٣/٤١٤) .
(٤) أسد الغابة (٣/٨٦) .

أشاغلك فيها ، فعزمت عليك إذا أنت نظرت في كتابي هذا ، ألاّ تضعه من يدك حتى تُقبل » ، فعرف أبو عبيدة ما أراد عمر ، فكتب اليه : « يا أمير المؤمنين ، قد عرفت حاجتك إليّ ، وإني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه ؛ فخلني من عزيمتك » ، فلما قرأ عمر هذا الكتاب بكى ، فقال الناس : يا أمير المؤمنين ! أمات أبو عبيدة ؟! فقال : « لا ، وكأن قد »[١] ؛ وفعلاً مات أبو عبيدة بالطاعون سنة ثماني عشرة للهجرة (٦٣٩ م) في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو ابن ثمان وخمسين سنة[٢] ، أي أنه ولد سنة أربعين قبل الهجرة (٥٨٤ م) وقبره (بِعَمْوَاس)[٣] وهو من الرملة على أربعة أميال مما يلي بيت المقدس[٤] ، وفي رواية ان قبره في (فحل) من أرض الاردن ، إذ انطلق يريد الصلاة ببيت المقدس ، فأدركه أجله (بفحل) فتوفي فيها ، ويقال إن قبره (ببيسان)[٥] ، وأرجح أن يكون قبره

(١) ابن الأثير (٢/٢١٦) .

(٢) طبقات ابن سعد (٣/٤١٤ ـ ٤١٥) و (٧/٣٨٥) وابن الأثير (٢/٢١٦) ومعجم البلدان (٦/٢٢٦) والإصابة (٤/١٣) وأسد الغابة (٣/٨٦) والاستيعاب (٢/٧٩٤) .

(٣) عمواس : هي كورة من فلسطين بالقرب من بيت المقدس ، وهي على ستة أميال من الرملة على طريق بيت المقدس . راجع التفاصيل في معجم البلدان (٦/٢٢٥) .

(٤) طبقات ابن سعد (٣/٤١٥) و (٧/٣٨٥) .

(٥) الاصابة (٤/١٣) وأسد الغابة (٣/٨٦) ، وقد جاء في الصفحة (٣٧٦) من المجلد الأول من دائرة المعارف الإسلامية : « أن أبا عبيدة توفى بالطاعون عام ١٨ هـ في (أمواس) وأن قبره بجامع الجراح بدمشق » .
والحقيقة أن أبا عبيدة توفى بالطاعون الذي ينسب إلى عمواس (لا أمواس كما ترجمت خطأ) وقد تفشى هذا الوباء في أرض الشام فمات به خلق كثير منهم أبو عبيدة .
وهناك قبر ينسب الى أبي عبيدة في غور الأردن ، رمم ضريحه في عهد السلطان بيبرس كما جاء في الكتابة المنقوشة عليه ، وهذه صورة عنها :

في (عمواس) لأن أكثر المصادر وأوثقها تؤيد ذلك ... فلم تُرَ فجيعة بين المسلمين بعد فجيعتهم برسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق أشد وقعاً عليهم ولا أكثر حزناً لهم من فجيعتهم بهذا الرجل الصادق الأمين . قال معاذ بن جبل[1] يبكيه : « إنكم فجعتم برجل ما أزعم والله أني رأيت من عباد الله قط أقل حقداً ولا أبرّ صدراً ولا أبعد غائلة ولا أشد حياء للعاقبة ولا أنصح للعامة منه ؛ فترحموا عليه »[2] .

بسم الله الرحمن الرحيم

« وأمر بإنشاء هذه القبّة المباركة على ضريح أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه مولانا السلطان الأعظم سيد ملوك العرب والعجم ، ركن الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين أبو الفتح بيبرس بن عبد الله قيم أمير المؤمنين خلّد الله ملكه ابتغاء مرضاة الله ورسوله مما وقفه عليه وحبسه من نصف مناصفات دير معل تونين من حمص من عمل حصن الأكراد المحروس تحبيساً مؤبداً دائماً ، أثاب الله واقفه بجوده وكرمه يوم يجزي الله المتصدّقين ولا يضيع أجر المحسنين . وذلك بنظر الأمير الأعز الأجـل الكبير نسله ناصر الدين الجامنكلي الظاهري السعدي نائب مملكة عجلون المحروسة في ذي الحجة سنة ستمائة وسبعة وخمسون » انظر العدد (١٣٩) الصادر في ٨ ذي الحجة سنة ١٣٥٤ـ٢ آذار ١٩٣٦ ص (٣٥٩) من مجلة الرسالة المصرية .

(١) معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي : يكنى أبا عبد الرحمن ، وكان طوالاً حسن الشعر عظيم العينين أبيض براق الثنايا . وهو أحد السبعين الذين شهدوا العقبة من الأنصار . وآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه وبين عبد الله بن مسعود . شهد العقبة وبدراً والمشاهد كلها وبعثه الرسول قاضياً الى الجند من اليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم ، وجعل اليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معاذ : « أعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل » وقال عنه : « يأتي معاذ بن جبل يوم القيامة أمام العلماء » .
شهد اليرموك وأكثر معارك فتح الشام وتوفي بناحية الأردن في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وليس له عقب . راجع طبقات ابن سعد (٣/٥٨٣) و (٧/٣٨٧) والاصابة (٦/١٠٦) وأسد الغابة (٤/٣٧٦) والاستيعاب (٣ ٢ ١٤٠) .

(٢) الاصابة (٤/١٢ ـ ١٣) .

لقد كان أبو عبيدة معروفاً بسلامة الدين وقوة اليقين والخلق المتين ، فكان رجلاً ليناً سهلاً هيناً عليه أمر الدنيا (١) حسن الخلق متبعاً لأمر رسول الله ﷺ (٢) ولأمر خلفائه من بعده ، وعلى شدة ورعه كان يقول : « والله ما منكم أحد يفضلني بتقى ، إلا وددت اني بسلامة »(٣) . ولم يكتف بإنفاق كل ماله في سبيل الله بل كان يتمنى أن يكون كبشاً يذبحه أهله ، فكان يقول : « وددت أني كبش فذبحني أهلي فأكلوا لحمي وحسوا مرقي »(٤) ، وهذا منتهى نكران الذات والتخلي عن أهواء النفس الأمارة بالسوء .

ولم يكن يضحي من أجل أهله فقط ، بل كان يضحي من أجل المسلمين كافة ، فالمسلمون كلهم إخوته ، لأن المؤمنين اخوة ، ففي عام الرمادة حين أصاب الناس مجاعة وجدب وقحط ، كتب عمر إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها ويستمدهم ، فكان أول من قدم عليه أبو عبيدة بأربعة آلاف راحلة من طعام ، فولاه عمر قسمتها فيمن حول المدينة ، فقسمها (٥) ورجع اليه ، فأمر له عمر بأربعة آلاف درهم ، فقال : « لا حاجة لي فيها يا أمير المؤمنين ، إنما أردت الله وما قبله ، فلا تدخل عليّ الدنيا » ، فقال عمر : « خذها ، فلا بأس بذلك إذا لم تطلبه ! » فأبى ، فقال عمر : « خذها ، فاني قد وليت لرسول الله ﷺ مثل

(١) سيرة ابن هشام (٢٩٩/٤) .
(٢) الاصابة (١٢/٤) .
(٣) الاصابة (١٢/٤) وفي طبقات ابن سعد (٤١٢/٣) : « يا أيها الناس ! إني امرؤ من قريش ، وما منكم من أحد أحمر ولا أسود يفضلني بتقوى الله إلا وددت أني في مسلاخه » .
(٤) أسد الغابة (٨٦/٣) وطبقات ابن سعد (٤١٣/٣) .
(٥) الطبري (١٩٣/٣) وابن الأثير (٢١٥/٢) .

ـ ذلك اليوم الذي لم يثبت فيه إلا أشجع الشجعان ؛ كما كان ذا عقيدة من الطراز الأول يستهين بالأخطار في سبيل عقيدته ، وكان ذا عقلية متزنة وذكاء وقاد لما أثر مهم في اعداده خططه العسكرية الصحيحة ، وكان موضع ثقة الناس وحبهم إلى درجة الافتتان بمزاياه الخلقية والعقدية وكان يساوي نفسه برجاله بل يستأثر دونهم بالأخطار : « إني في جند من المسلمين لا أجد بنفسي رغبة عنهم فلست أريد فراقهم حتى يقضي الله فيّ وفيهم أمره وقضاءه »[1] ، وهو ما كتبه إلى عمر بن الخطاب حين أراد عمر أن يستخرجه من منطقة الوباء .

لقد كان أبو عبيدة قائداً مكيثاً ، والحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث كما كان يقول عمر بن الخطاب[2] ، وكان قائداً (متّبعاً) يتلقى الأوامر وينفذها بكل أمانة وإخلاص ؛ وقد بقي بعد معركة اليرموك في موضعه لا يبرحه حتى يأتيه رأي عمر وأمره[3] ؛ وهذا دليل على شدة ضبط أبي عبيدة وإيمانه بضرورة إطاعة مرجعه الأعلى .

ولعلّ هناك من يأخذ على أبي عبيدة تريّثه الشديد قبل الإقدام على خوض معركة من معاركه ، والحق ان هذا التريّث كان موضع نقد كثير من المندفعين المتحمسين في جيشه ؛ فقد بلغ معاذ بن جبل أن بعض أهل الشام استعجز أبا عبيدة أيام حصار دمشق ورجّح خالد بن الوليد ، فغضب معاذ وقال : « أبأبي عبيدة يُظن ؟ ! والله إنه لمن خير من يمشي على الأرض »[4] . وسمع معاذ رجلاً يقول :

---

(١) ابن الأثير (٢/٢١٦) .
(٢) الطبري (٢/٦٣١) .
(٣) الطبري (٢/٥٩٩) .
(٤) الإصابة (٤/١٢) .

« لو كان خالد بن الوليد، ما كان البأس ذو كَوْن » ، وذلك في أيام حصر أبي عبيدة بحمص ، فقال معاذ : « فإلى أبي عبيدة تضطر المعجزة ؟ ! لا أبالك ؟ ! والله إنه لمن خير مَن على الأرض »[1] . وهذا يدل على مبلغ ثقة كبار الصحابة بقيادة أبي عبيدة وشدة اعتمادهم عليه .

لقد كان من القادة الذين يستشيرون رجالهم في كل خطوة يخطونها ، وعندما تحشد الروم لاستعادة أرض الشام ، استشار أصحابه ، فأشار عليه الأكثرية بقبول الحصار في (حمص) ، أما خالد بن الوليد فأشار عليه بالهجوم على جموع الروم ؛ ولكنّ أبا عبيدة أخذ برأي الأكثرية فاستمد عمر بن الخطاب وأخبره بالموقف الراهن .

وكان بعيد النظر ، يدخل في حسابه أسوأ الاحتمالات ، لذلك شحن النواحي المخوفة[2] بالرجال للدفاع عنها عند الحاجة ريثما تردهم الإمدادات وبهذه التدابير الاحتياطية لم يستطع العدو في أيامه استعادة أي موقع فتحه المسلمون .

وإذا كان الإيمان بالقضاء والقدر عاملاً من عوامل انتصار المسلمين ، فقد كان أبو عبيدة مثالاً شخصياً رائعاً لرجاله في إيمانه العميق بالقضاء والقدر ، وكم كان مهيباً مؤثراً في نفوس رجاله حين كان يتجوّل في معسكراتهم وهو يقول : « ألا رُبّ مبيض لثيابه وهو مدنّس لدينه ! ألا رُبّ مكرم لنفسه وهو لها مهين غداً ! إدفعوا السيئات القديمات بالحسنات الحادثات ... » .

وهو بالإضافة إلى ذلك ، كان صحيح القرار غير متسرّع في إصداره ، ذا إرادة قوية نافذة ونفسية لا تتبدل في حالتي النصر والاندحار وشخصية نافذة قوية وقابلية بدنية ممتازة ، يثق برجاله ويثقون به ويحبهم ويحبونه ، وله ماض ناصع مجيد .

---

(١) طبقات ابن سعد (٣/٤١٤) .
(٢) ابن الأثير (٢/١٩٢) .

لهذه الأسباب أمره الرسول القائد في حياته على بعض سرايا المسلمين في ثلاث غزوات كان أبو بكر الصديق وعمر الفاروق من بين جنوده في بعض تلك الغزوات، فنجح أبو عبيدة في قيادته نجاحاً باهراً؛ لذلك حرص كل من الشيخين غاية الحرص على توليته مقاليد القيادة في أيامهما، بل رشحاه بكل جدارة لتسنم مقاليد الخلافة، والخليفة حينذاك هو القائد الأعلى لقوات المسلمين.

لقد كانت لأبي عبيدة ذكرة سوقية (استراتيجية) ممتازة، فقد بعث بعض القوات لمشاغلة قوات الروم في (فحل) بينما حاصر هو دمشق حتى فتحها ثم قصد (فحل) بقواته كلها، ولولا ذلك لكان من المحتمل أن تتعاون القوتان المعاديتان في فحل ودمشق على مقاومة المسلمين في وقت واحد وفي مكان واحد.

كما أرسل خالداً على رأس جيش لضرب الجيش الرومي الذي كان متوجهاً إلى دمشق مما أدى إلى فشل هذا الجيش في مهمته، لأنه أصبح يقاتل في جبهتين في آن واحد: من الأمام يقاتل جيش يزيد بن أبي سفيان، ومن الخلف يقاتل جيش خالد ابن الوليد.

وكان في أعماله الحربية يطبق مبدأ (المباغتة) كما فعل في معركة اللاذقية، ويعمل على (اختيار مقصده وإدامته) ويبذل أقصى جهده لإكمال (تحشيد قواته) قبل المعركة، ولكنه كان (يقتصد بالمجهود) ولا يسرف في استخدام قطعات كبيرة بدون مبرر، ولا بإعطاء خسائر كثيرة دون جدوى، وذلك لأنه كان يحرص على استكمال متطلبات (الأمن) لقطعاته حتى تستطيع العمل (بمرونة) و (تعاون)، كما كان (يديم معنويات) رجاله ويؤمن لها جميع (الأمور الادارية).

تلك هي مزاياه قائداً، وهذه هي مبادئ الحرب التي كان يطبقها في معاركه؛ كل ذلك أدى إلى نجاحه في معاركه التي خاضها، وهي معارك (استثمار الفوز)،

أو معارك (التطهير) التي تكون عادة بعد المعارك الحاسمة ؛ فقد فضّل التخلي عن القيادة العامة في معركة اليرموك الحاسمة ، واستمدّ أبا بكر ، فأمده بخالد بن الوليد قائلاً : « خالد لها » ؛ فقاد خالد المسلمين إلى النصر المبين في معركة اليرموك بفضل اندفاعه ومجازفته وسرعة قراراته وسرعة حركته واستخدامه أساليب جديدة في القتال ؛ ولكن أبا عبيدة عاد إلى تولي القيادة العامة بعد اليرموك ، فخاض معارك استثمار الفوز بنجاح باهر يكاد يعتبر فوزاً عسكرياً إذا أدخلنا في حسابنا تفوّق الروم الساحق على المسلمين ، وسرعة انجاز الفتح ، وقلة الخسائر بالأرواح التي ضحى بها المسلمون من أجل فتح بلاد الشام كلها .

لقد جاهد أبو عبيدة في سبيل الله أعظم الجهاد ، وبقي يجاهد إلى آخر لحظة من حياته ، فسقط صريعاً بالطاعون ، ولم يسقط من يده السيف .

أبو عبيدة في التاريخ :

يذكر التاريخ لأبي عبيدة جهاده الطويل لإعلاء كلمة الله بسيفه ولسانه في عهد الرسول ﷺ ، فكان موضع ثقة النبي ورضاه وإعجابه الشديد بخلقه الكريم وجهاده العظيم وإخلاصه لله ولرسوله .

ويذكر له موقفه الرائع في سقيفة بني ساعدة ، ذلك الموقف الذي كان من عوامل جمع شمل المسلمين ووحدة صفوفهم وعدم تفرقهم بعد النبي ﷺ .

ويذكر له فتحه أرض الشام : سورية ولبنان وفلسطين والأردن ، تلك المنطقة التي أمدّت المسلمين بسيل جارف من المجاهدين بسيوفهم وبسيل جارف من المجاهدين بأقلامهم .

وكأني بأبي عبيدة ينادي من وراء الغيب : هل فتحنا فلسطين ليسلمها أبناؤنا لليهود ؟ واحسرتاه ! وا أسفاه !! .

وربما كان لأبي عبيدة من ينافسه في مزايا قيادته ، ولكن لا أحد في الصحابة ينافسه في مزايا خلقه ، فقد كان فريداً في خلقه القويم بشهادة رسول الله ﷺ .

ويذكر التاريخ له أنه كان أحد العشرة السابقين للإسلام وأحد العشرة المبشّرين بالجنة ؛ وانه لم يعش لنفسه بقدر ما عاش للناس ، فرض الجهاد على نفسه ، فلم يكن يستطيع منه خلاصاً ، فعاش مجاهداً ومات مجاهداً ، ولم يختره الله لجواره إلا بعد أن أبقى اسمه على كل لسان وفي كل قلب : رمزاً للجهاد الصادق والإيمان العميق والخلق العظيم .

رضي الله عن الصحابي الجليل ، المحدث الفقيه ، المؤمن الصادق ، القوي الأمين ، المجاهد الشهيد ، القائد الفاتح ، أبي عبيدة بن الجراح .

محمود شيت خطاب

الجزء الأول المجلد التاسع والثلاثون

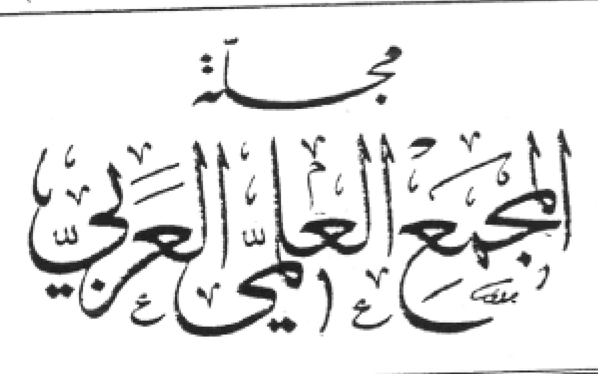




كانون الثاني « يناير » سنة ١٩٦٤ م

شعبان سنة ١٣٨٣ هـ

الجزء الثاني		المجلد التاسع والثلاثون



١ نيسان « ابريل » سنة ١٩٦٤ م		١٩ من ذي القعدة سنة ١٣٨٣ هـ

فارس العرب !

لو يسكر الدهر من ذكراكِ يا حلبُ ... لكان للدهر منكِ الخمرُ والعنبُ
هـذا دويُّكِ والدنيا تردّده ... تكاد تهتزُّ من أهواله الحِقب
ما كان أمسكِ الا ّ أمس ملحمةً ... غنّى بها السيفُ والأقلامُ والكتب
لولا الليالي التي كابدتِ ظلمتها ... ما كان للعرب بين الروم مضطرب
فلو سألت دروب الروم عن بلدٍ ... ذلّت به الروم قالت: حسبكم حلب!
أعدتِ ذكرى بني حمدان وارقة ... ذكراهمُ الجودُ والعلياء والا ّدب
كانوا الملوك وتاج الملك فوقهمُ ... تُزهى به الأ رضُ والأفلاك والشهب
حصنُ العروبةِ لم يهدم عروبتهم ... نومٌ على الضيم والثارات تُغتَصب